البلاغة العربية بين منهجي اللغة والأدب

بقلم محمد عيد

- ١ -

البلاغة العربية ، بعلومها الثلاثة ـ البيان والمعاني والبديع ـ جانب مهم مما ورثناه من ثقافتنا العربية القديمة ، ولقد جاءتها هذه الاهمية من سمات القداسة التي تعودنا ان نضفيها ـ دون تثبت او تقويم ـ على كل ما جاءنا من تراثنا القديم ، وهكذا ظلت علوم البلاغة الى اليوم تفرض على عقولنا هذه الاهمية التي تنبع من القدم اكثر مما تنبع منها نفسها ومن مسايرتها لروح التطور اللغوي والادبي الذي يفرض علينا مسايرته والافادة منه افادة حقيقية يمكن استخدامها في مجال الواقع المتطور باستمرار ، والذي يفرض علينا مواجهته باسلوبه، سواء في مجال النقد او في مجال الانتاج الادبي .

ولقد احسست وانا اتلقى دراسة علوم البلاغة منذ قريب ـ كما احس بذلك كثيرون غيري ـ ان هذه الدراسة لا تفيدنا فكريا ولا وجدانيا ، ولا تنمي ثقافتنا او شعورنا ، وان الموضوع كله صناعة آلية ذهنية تدور في اطار تجريدي بعيد تماما عن متطلبات العصر ، وروح الادب ، اذ نجه الدراسة البلاغية ـ كما هي عليه الان ـ الى ايراد قواعد نحفظها عن « مقتضى الحال » و « التشبيه المفرد والمركب » و « المجاز » و « الاستعارة التمثيلية » و « الكناية » و « الخبر والانشاء » و « الفصل والوصل » و « الايجاز والاطناب والمساواة » وغير ذلك من الابحاث التي تدور في اطار الصناعة البلاغية ، وهي مشهورة ومتداولة .

واكبر دليل يحسه الدارس عن تمكن « الصناعة الالية » في هذه الابحاث هو تجمد الامثلة والشواهد فيها ، اذ ان كتب البلاغة ـ حتى ما الف حديثا فيها ـ تكرر نفس الامثلة التي اوردها علماء البلاغة السابقون ، نفس الامثلة التي اعتمد عليها السكاكي منذ القرن السادس والسابع الهجريين ، وتابعه فيها دارسو البلاغة وشارحوها حتى العصر الذي نعيش فيه ـ وهذه ظاهرة لا نجدها في علم البلاغة فقط ، بل نجدها كذلك في كثير من الدراسات التي تجمدت عند وضع معين مثل الدراسات النحوية والفقهية القديمة ـ وهذا يشير بدوره الى عيب خطير في دارسي البلاغة والباحثين فيها ، اذ لم يتوقف احدهم ـ الا الاقلون ـ ليتساءل عن قيمة هذه الدراسة في ذاتها ؟؟ او عن قيمتها في ارتباطها بالواقع العلمي في الدراسات الادبية او الانتاج الادبي الدائم التطور والاستمرار ؟؟ « فلم تعد بلاغتنا تساير التطور الجديد في اساليبنا التعبيرية ، حتى كادت تصبح تاريخا فقهيا للغة في بعض العصور الاخرى ، بدلا من ان تبقى علما متطورا يخدم اللغة ، ويعكس احوالها ويسجل مراحل نموها . والواقع ان بلاغة اية لغة ينبغي ان تبقى علما مطاطا قابلا للنمو معها ، والا بعدت الشقة بينهما ، وانحط شأن البلاغة » (١) وهذا ما حدث للبلاغة العربية اذ استمرت الدراسات الادبية واللغوية تتطور وبقيت البلاغة تتفرج ـ بفعل ما سنبينه من عيوب فيها ـ فبعدت الشقة بينها وبين غايتها . وراحت تمضغ نفسها في تلك القواعد الذهنية بشواهدها الصناعية .

وهذا المقال العلمي محاولة نتلمس فيها تاريخ الدراسات البلاغية بصورة مجملة ثم اهداف علوم البلاغة العربية ـ بعد ان تجمدت ـ كما قررها البلاغيون القدماء والمحدثون ايضا ـ ثم نحاول معرفة العيوب المنهجية التي بعدت بدراسة البلاغة عن ان تؤدي دورها الحقيقي في تفسير الادب وتذوقه ، ومنها وفيها يكمن سر الجفاف والعقم الذي منيت به هذه الدراسة ، وبذلك قصرت عن تأدية دورها في تفسير النصوص وتذوقها ، وتمثل عناصر الجمال او العيوب فيها . واخيرا اتقدم بما اعتقد انه الحق في تقييم هذه التركة البلاغية ، وذلك بمقابلة اهم مباحثها بمناهج دراساتنا الحالية للغة والادب ، لنضع هذه المباحث في مكانها الذي يجب ان تكون فيه ، لنخرج عن جمودها التقليدي من ناحيه، ولا تؤدي دورها ـ دراسة وعملا ـ في موضعها الحقيقي من ناحية اخرى ... وما علي ان اكون مصيبا او مخطئا في ذلك ، فانه ـ على كل حال ـ رأي يستند الى دراسة علمية متطورة في اللغة والادب، وربما قد جانبني فيه التوفيق ، ولكني مجتهد !!

- ٢ -

لقد مرت الدراسات البلاغية قبل السكاكي بمستويات مختلفة من حيث الهدف والكيفية ، ذلك ان هذه الدراسات قد نشأت اولا ـ شأنها شأن غيرها من العلوم العربية ـ لخدمة القرآن الكريم ومحاولة التعرف على ما فيه من المفردات والاساليب الغريبة . باستقراء ذلك وتصنيفه، ويوضح هذه الحقيقة ان اول اثر بلاغي بين ايدينا هو « مجاز القرآن » لابي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١) ثم استمرت هذه الجهود العلمية المرتبطة بالقرآن بعد ذلك في القرون الثلاثة التي تلت مجاز ابي عبيدة، وكلها محاولات لفهم القرآن ومعرفة سر اعجازه ـ فعلى طول هذا الطريق تطالعنا كتب مثل « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة (ت ٢٧٦) و « النكت في اعجاز القرآن » للرماني (ت ٣٨٤) و « اعجاز القرآن » للباقلاني (ت ٤٠٣) وغير ذلك من المجهودات الطيبة التي وان لم يحددها علم منظم او تفكير مقنن ، فانه يجمعها كلها انها تتجه الى ذلك الاثر الخالد ـ القرآن ـ في محاولات متتابعة لدراسته ، وان كانت هذه الدراسة في مجملها ذات طابع عام متناثر ، ترتبط بالجزئيات اكثر من ارتباطها بالنص الكامل . ومحاولة تحليله وتفسيره وحدة واحدة ، للانتهاء من ذلك بقضايا فنية عامة يعتد بها في النص القرآني ، وفيما عداه من النصوص الفنية الاخرى ، كما رأينا ذلك لدى بعض الدارسين في العصر الحديث من دراسة « التصوير الفني في القرآن » و «مشاهد القيامة في القرآن» وغيرهما .

وفي نفس الوقت قامت دراسات بلاغية اخرى ، لم تكن ذات صبغة دينية ، بل كان لها استقلال في موضوعاتها واهدافها اختلفت مستوياته على مدى الزمن ، وبدأت هذه الدراسات مبكرة ايضا بصحيفة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠) ومتجاورة مع الدراسات البلاغية القرآنية السابقة، وظلت متجاورة معها طوال القرون الثلاثة التالية للصحيفة المذكورة مع اختلاف نموها وقيمتها في كل قرن على حدة .

ففي القرن الثالث الهجري اختلطت الدراسات البلاغية بدراسات اخرى غير ادبية ، ضمتها كتب عامة موسوعية الطابع ، اهمها « البيان والتبيين » للجاحظ (ت ٢٥٥) والكامل في اللغة والادب للمبرد (ت ٢٨٥) وهي كتب غير مختصة في موضوعاتها ، ولا في هدفها العام اذ تحوي اخبارا واشعارا ، ودراسات في البلاغة وغيرها من مسائل الادب واللغة ـ وفي القرن الرابع اختلطت دراسات البلاغة بالدراسات النقدية القديمة ، وكأنما الهدف هو الحديث عن الادب بصورة عامة ، كما نجد ذلك في «عيار الشعر» لابن طباطبا (ت ٣٢٢) و «نقد الشعر» لقدامة ابن جعفر (ت ٣٣٧) وتتبع قيمة هذه الدراسات ـ على ما فيها من عيوب ـ من اعتمادها ـ ولو نظريا على النصوص الادبية ، ومن تخصص مصطلحاتها التي كانت عامة فيما سبق .

وكان اقصى مد وصلت اليه الدراسات البلاغية ـ قبل السكاكي

---

(١) قضايا الشعر المعاصر ص ٢٤٠

ـ في القرن الخامس على يد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤) في كتابه « دلائل الاعجاز » ففيه قدرة فنية عالية لفهم النصوص الادبية وتحليلها متكاملة ، وعناية بدلالات الالفاظ وايحاءاتها مرتبطة بالاحساس العام بالنص ومداوله ـ وهذا لم يحدث فيما سبق من دراسات ـ كما يغلب فيه التطبيق على نصوص القرآن والشعر والنثر .

بعد ذلك ... كان السكاكي (ت ٦٢٦) وفيه يقول ابن خلدون : ولم تزل مسائل الفن ـ البيان والمقصود كل علوم البلاغة ـ تكمل شيئا فشيئا ، الى ان مخض السكاكي زبدته ، وهذب مسائله ورتب ابوابه على نحو ما ذكرنا آنفا من الترتيب ، والف كتابه المسمى « بالمفتاح » في النحو والتصريف والبيان ، فجعل هذا الفن من بعض اجزائه ،واخذه المتأخرون من كتابه ، ولخصوا منه امهات هي المتداولة لهذا العهد، كما فعله السكاكي في كتاب « التبيان » وابن مالك في كتاب « المصباح » وجلال الدين القزويني في كتاب « الايضاح » و « التلخيص » وهو اصغر حجما من الايضاح (٢) .

اجل ... انه هو أبو يعقوب السكاكي !! الذي جمد دراسة البلاغة وفن قواعدها وخنق الصلة بينها وبين الادب والتذوق ، ودخلت دراستها ـ بسببه ومن بعده ـ مجاهل ضل فيها الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، واثر كتابه كل التأثير فيمن تابعوه من الشراح والملخصين حتى العصر الذي نعيش فيه (٣) ، وهذا ما سيتضح بصورة اكبر فيما يأتي من فقرات هذا المقال .

ـ ٣ ـ

« البلاغة في الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته »بهذه العبارة تتفتح وجوه البحث في دراسات علوم البلاغة الثلاثة بتفصيلاتها الكثيرة ، وتبدو براعة البلاغيين في ابحاثهم حول تفسير هذه العبارة وفهمها كي تشمل كل علوم البلاغة الثلاثة « فالمراد بمناسبات الحال الخصوصيات التي يبحث عنها في علم المعاني ، دون كيفيات دلالة اللفظ التي يكفل بها علم البيان . اذ قد تتحقق البلاغة في الكلام بدون رعاية كيفيات الدلالة . بأن يكون الكلام المطابق لمقتضى الحال مؤديا للمعنى بدلالات وضعية ... نعم اذا ادي المعنى بدلالات عقلية مختلفة في الوضوح والخفاء . لا بد في بلاغة الكلام من رعاية كيفية الدلالة ايضا » (٤) فالمطابقة لمقتضى الحال تقتضي تعبيراً يؤديها واذا كانت دلالات الالفاظ في هذا التعبير وضعية على حسب عرف اللغة فقط ، اختصت هذه العبارة ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال ـ بعلم المعاني، اما اذا كانت تلك التعبيرات التي تؤدي هذه المطابقة مما تتدخل فيها الصنعة العلقية والقدرة البلاغية بحيث تختلف وضوحا وخفاء ـ لاحظ ان الخفاء لدى البلاغيين ابلغ ـ فان العبارة تشمل علم البيان ايضا ، اذ تختلف فيه مستويات التعبير بين الارتفاع والهبوط حسب حظها من الوضوح والخفاء ، وحسب حظ قائلها من القدرة على الصناعة ـ التي وصفت بأنها عقلية ـ من حقيقة او مجاز ومن تشبيه او استعارة او كناية، اذ تتفاوت رتب هذه الامور السابقة ، وما كل الا له مقام معلوم يقدره اهل الفضل من علماء البلاغة .

غير ان البلاغيين يكادون يتفقون بعد مجهود عنيف في شرح العبارة السابقة والدوران حولها وتقليبها على وجوهها الممكنة وغير الممكنة باعمال العقول فيها على انها تشمل علمي المعاني والبيان ـ بل وعلم البديع ايضا ـ اذ « يسمى العلمان علمي البلاغة : لان لهما مزيد اختصاص بالبلاغه ، اما في المعاني فواضح ، لان به يعرف ما يطابق به الكلام مقتضى الحال . والبلاغة مطابقة الكلام مقتضى الحال ، واما فن البيان فلأن مفاده وثمرته معرفة ما يزول به التعقيد المعنوي ، وهو مما يتوقف عليه البلاغة ... فازاله التعقيد المعنوي لا يتعرض له الا من له طموح للبلاغة » (٥) فما دام البحث في البلاغة .. وطموح اليها ، فلا بد ان يشمل هذا البحث في الواقع التفاوت في طرق التعبير وهو ما انبنى عليه علم البيان ـ بل ان الامر يشمل ما هو اكثر من ذلك وهو دراسة وجوه « الفهلوة » والتفنن التي يحسن بها الكلام نسيجه الايقاع اللفظي والملاعب بالالفاظ والحروف او اللمحات المعنوية الجزئية في المعاني وهو مما يزيد الكلام حسنا تحسن البلاغة .

فالعبارة التي افتتحت بها هذه الفقرة ـ مطابقة الكلام لمقتضى الحال ـ هي المحور الذي دارت حوله ابحاث البلاغيين القدماء والمحدثين ايضا ، فابعوهم في نفس المصطلحات وشرحها وتحددت تلك الابحاث في:

١ ـ علم المعاني : وهو ما يعرف به المعاني التي يصاغ لها الكلام ، وهي الدلالات العقلية المسماة بخواص التراكيب .

٢ ـ علم البيان : وهو ما يعرف به بيان ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالات وخفائها .

٣ ـ علم البديع : وهو ما يعرف به وجوه تحسين الكلام لفظيا ومعنويا .

ولكن ... ما هي الفائدة التي تؤديها الدراسة البلاغية كما يراها البلاغيون ؟! او بعبارة اخرى : ما اهداف هذه الدراسة التي يمكن ان يفيد منها الدارس من وجهة نظرهم ؟!

اولا،في رصد هذه الفكرة ينبغي ان يصرف النظر عن الحديث العام ذي الطابع الانشائي اذ انطبيعة هذا الحديثلا تفيد شيئا محددا ذا قيمة وذلك مثل « وعلم البلاغة أشرف أنواع الادب قدرا وأعلاها مكانة وخطرا، لانه علم الاستخراج لاسرار البلاغة من معادنها ، والكشف عن محاسن النكت المودعة في مكانها » أو مثل « علم البلاغة نافع للاديب والناقد والمؤرخ ، ولكل كاتب أو متكلم أو خطيب أوم درس ، فانه ينير السبيل امام هؤلاء جميعا ، ويعينهم على ان تكون آثارهم اللغويةمفيدة مؤثرة ممتعة تغذي العقل والشعور والاوزان » (٦) فان المفاضلة بين علم وآخر لا تفيد شيئا ، فليكن علم البلاغة أشرف قدرا واعلى مكانة أو محروما من كلا الوصفين ، فهذا لا يهم ، ولا يدخل في نطاق البحث !! ولا أدري كذلك كيف تفيد البلاغة كل هؤلاء المذكورين وبخاصة المؤرخ !! والحقيقة ان مثل هذه العبارات العامة وأمثالها لم تعد من سمات التفكير العملي المنظم ، بل لم تعد من سمات عصرنا على الاطلاق ، اذ لا تتمخض عن شيء له وزنه الحقيقي ودعائمه العلمية الصحيحة .

ومع ذلك فمن الممكن ان نحدد اهداف هذه الدراسة بما نعثر عليهبين العبارات العامة والانشائية سواء في الكتب القديمة او بوابعها منالكتب الحديثة . يقول ابن مالك « واذا حذقت هذا العلم اطلعك على اعجاز نظم القرآن ، وعلى خفاء انصباب نظمه في تلك القوالب ، وورود على تلك المناهج والاساليب ، وافدرك في نسج جيد الكلام على ما يشهد لك من البلاغة بالفدح المعلى (٧) فالهدف من دراسة البلاغة اذن يتحدد في أمرين هما :

اولا : معرفة طريقة القرآن في نظمه،وبالتالي الكشف عن سر اعجازه.

ثانيا : معرفة الطريقة التي يكون بها الدارس بليغا في نطقه ، بما يشهد له ـ كما قال ابن مالك ـ بالقدح المعلى .

وقد قرر استاذنا « احمد الشايب » الفكرة الثانية بنفس المعنى مع اختلاف الاسلوب فقط اذ يقول :

« فقواعد البلاغة ترشدنا الى الانشاء الصحيح، والى الطرق المختلفة

---

(٢) راجع : مقدمة ابن خلدون (بتحقيق وافي) ج ٤ ص ١٢٦٥

(٣) يلاحظ ان دراسة البلاغة في جامعاتنا ومدارسنا لا زالت تسير على نفس الطريق الذي وضعه السكاكي وشراحه ، وتردد نفس الامثلة والشواهد ولم يحدث بها تجديد فكري بل شكلي .

(٤) شروح التلخيص ج ١ ص ١٢٣ (الايضاح للقزويني) .

فقد لخص القزويني مفتاح السكاكي ، ونال هذا التلخيص ما لم يقله الاهمال من الاهتمام والشروح الكثيرة ومنها مجموعة منهورة في كتاب واحد بهذا الاسم .

(٥) السابق ص ١٥٠ (مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي) .

(٦) العبارة الاولى من « المصباح » ص ٣ ـ والثانية من الاسلوب ص : ٩

(٧) المصباح ص ٣

لتاليف الكلام الممتاز بالافادة وقوة التاثير » (٨) .

اجل... فاهداف البلاغة ان نعرف بها اعجاز القرآن وانتعلمنا الانشاء الصحيح !! وكلا الهدفين لا يمكن ان تؤديهما البلاغة العربية بصورتهـا الحالية ـ لما سيأتي في الفقرة التالية ـ فقط أقرر هنا أن الهدف الثاني منهما يقف في طرف مخالف تماما للروح الادبية والعلمية ، ذلك أن الادب ليس قواعد ينتج الاديب على اساسها ، ولكنه استعداد فني لدى الاديب ينميه النقد البناء لانتاجه ، مع موالاة هذا الانتاج وهـذا النقد ، ولا تصور أديبا اصيلا يتوقف ليسائل نفسه عن قواعد البلاغة لكي يتوافق معها فيما يقدمه من اساليب وافكار ، وبعبارة أخرى : أن الانتاج الادبي طبع يسنده النقد ، وهو سابق على القواعد والتقنين . وهذا نفسه هو روح المنهج الاستقرائي السائد الآن في البحث العلمي الذي يقرر ان الانتاج اولا ثم يكون التفسير ، فالاستقراء يكون لما هو كائن بالفعـل لا لما يجب أن يكون ، وهو منهج يتسم بالتسامح وعدم التحكم . ولكن شاء البلاغيون ان يجعلوا هذا العلم للاقدار على « نسج جيد الكلام » و « تعليم الانشاء الصحيح » فجانبهم التوفيق فيما انتجوه وفيما هدفوا اليـه .

ـ ٤ ـ

من الاسباب التي أدت الى عقم البلاغة وتجمدها انها تأثرت أبلـغ التأثر بالابحاث الفلسفية التي تأثر بها الباحثون العرب في وقت مبكر مع نشأة العلوم العربية ونمت معها نموا وصل في العصور المتأخرة الى حد التحمل والتكلف ، والى درجة جعلت الدراسة في علم كالبلاغة مجهودا مضنيا للعالم والمتعلم على السواء ، واذا كان هذا المجهود يبذل فقط في الفهم والمعرفة ، فكم مؤسفا ان ما نفهمه وما نعرفه مما لا علاقة له بالادب ولا بالفن الاصيل .

وفي يدي من تراثنا البلاغي المتأخر « شروح التلخيص » وهي خمسة مرتبة في الصفحة الواحدة ترتيبا تنازليا على طريقة الانهر ـ وكلها تشرح ملخصا لكتاب « المفتاح » وضعه الخطيب القزويني ، وقد فحصت أحد أجزاء هذا الكتاب ، فوجدت أمامي حديثا عن ادلة الحذف في مثل قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) فقد قال الملخص : العقل يدل على الحذف ، والمقصود الاظهر ـ هل سمعت به !! ـ يدل على المحذوف ، وجاء في أحد الشروح « وفيما قاله المصنف نظر من وجهين ، أحـدهما : أن الدليل المسوغ للحذف لا بد ان يكون دليلا على تعيين المحذوف ، امـا لفظيا كالمعين ، او خارجيا كما في المجمل لاعلى اصل الحذف ، فـان أراد أن العقل دل على أصل الحذف فليس ذلك دليلا مسوغا للحـذف الا لفرض الابهام ، وان اراد أن العقل دل على اصل الحذف ، والظهور دل على تعيينه ، فالدال حينئذ على المحذوف المعين وهو الظهور فالاولى أن يقال ظهور ارادة المحذوف دليل عليه ، وتارة يجوز العقل مع ذلـك ارادة المنطوق به ، وتارة لا يجوز ، بأن يدل العقل على استحالة ارادته، والثاني : ان قوله : ادلته كثيرة منها أن « يدل العقل » لا يصح ، لان « يدل العقل » ينحل الى «دلالة العقل » فكأنه قال ادلته الدلالة وهـو فاسد » (٩) .

هل فهمت شيئا !! واذا كنت قد فهمت ، فماذا يفيد ذلك في الفـن والادب ! ، أو حتى ـ كما قالوا ـ في معرفة الاعجاز في الآية المجهدة تحت وطأة هذه المعاني الذهنية الفلسفية التي لاتقدم شيئا غير التشويش والعياء .

ان السر الذي يكمن وراء هذا اللون من البحث ان كثيرا من الباحثين في هذا الدور المتأخر كانوا متكلمين ومناطقة ومتفلسفين قبل أن يكونوا أدباء أو نقادا ، فالسكاكي متكلم ، والتفتازاني (ت ٧٩٢) متكلم ومنطقي، له من الكتب « شرح العقائد » و « المقاصد في الكلام » و « شـرح الشمسية في المنطق » والسريف الجرجاني علي بن محمد (ت ٨٢٦)أستاذ في البحث والجدل والفلسفة ومن كتبه « شرح حكمة العين » و « شرح كتاب المواقف في الكلام » وكان من الضروري اذن أن ينعكس تكوينهـم الذاتي ـ عن قصد أو غير قصد ـ على مجهودهم البلاغي فكانت تلـك التركة البلاغية التي نعلم كل شيء الا البلاغة .

على أن فكرة « مقتضى الحال » نفسها التي قامت عليها دراسة البلاغة ـ كما سبق ـ فكرة دخيلة عرفت عن أرسطو ، وقد ذكر ذلك الدكتور ابراهيم سلامة ـ وهو مترجم كتاب : الخطابة لارسطو ـ اذ قرر أن هذا مبدأ اقره ارسطو، فما كان يسمح ان يتكلم في الخطابة القضائية بما هو لائق بالخطابة السياسية ، بل طالب الخطباء بمراعاة الجنس والسـن والحالة العقلية للسامعين فلا تكلم النساء بما يكلم به الرجال ، ولايكلم الشباب بما يكلم به الشيوخ ، ولا يكلم الجاهل بما يكلم به المتعلم (١٠).

ونتيجة لهذا السبب الرئيسي من عيوب البلاغة ، يجيء سبب اخر هو « قصور الدراسات البلاغية عن مجاراة الادب » ذلك أن الادب فـن يتطور باستمرار ، في موضوعاته وأشكاله وروحه وهذا يستدعي بدوره دراسة متطورة تلاحقه بالتفسير ... والتنوير ، وهذا لم يحدث للبلاغة في عصورها المتأخرة ، لان طبيعة دراستها ـ كما وصفنا ـ منفصلة عن الادب من ناحية ولان الجهود بعد ذلك اتجهت للتلخيص والشروح والحواشي من ناحية اخرى ، فلم تصبح المادة المدروسة هي الادب ، بل أصبح المدروس المشروح هو مجهودات السابقين المقيدة بشواهد محدودة ، يرددها الخلف بعد السلف ، ولست اغالي اذا قلت : انها قد انتخبت عن قصد لمصلح ميدانا للاخذ والرد والمجهود الذهني الرائع في غير ما يستحق الروعة!! ولو أوردت هنا بعض هذه الشواهد لكان فيها ما يثير ابتسامة الغيظ ومرارة الاسف .

وهناك عيب ثالث في الاطار الذي وضعه البلاغيون لدراستهم ـ غيـر الادبية ـ اذ لم يضعوا في اعتبارهم دراسة النص وحدة متكاملة ، بل جعلوا هذه الدراسة تدور حول المفردات والجمل منفصلة عن روح النص ومضمونه ، فالبحث فـي المعاني انما بحث في طرفي الجملة ـ المسند والمسند اليه ـ ثم بحث الجمل من حيث تقع موقع المفردات أو لا تقـع فتوصل او تفصل وكذلك نجد ابحاث البيان من تشبيه واستعارة وكناية ليست الا جملة واحدة او كالجملة الواحدة اذا كانت تشبيها مركبا، او مجازا كذلك وهكذا . فالبلاغة العربية بوضعها الراهن ـ كما يقول أحد

(٨) الاسلوب ص ٧

(١٠) راجع : بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ٣١ .

(٩) شروح التلخيص جـ ٣ ص ٢٠٥ .

اطلب منشورات

دار الاداب

في الاردن

مـن

المكتب التجاري

لصاحبه محمد موسى المحتسب

القدس ـ تلفون ٤٤٦٥

عمان ـ شارع الملك حسين ـ مقابل بنك انترا

الدارسين لا تكاد دائرتها تتعدى البحث في مظاهر الجمال الحسية والمعنوية في الجملة ، من حيث مفرداتها وتأليف هذه المفردات وترتيبها الى البحث في مظاهر الجمال للقطعة الادبية المتكاملة .

والحقيقة ان البلاغة لا بحث لها في الجمال على الاطلاق ، ولو كانت بحثا في الجمال ـ حتى في نطاق الجمل والمفردات ـ لارتبطت بالنص كله ـ ربما بقوة الدفع الذاتي ـ وقدمت للذوق والادب ما هو اجدى مما هي عليه الآن .

ـ ٥ ـ

والآن ... ما هو الحل ؟؟

هناك طريقان يردان على الذهن تجاه مشكلة البلاغة ، أولهما هو طريق الاصلاح والترقيع ، والثاني هو طريق المواجهة الجذرية للمشكلة ، نضع فيه ابحاث البلاغة في مناخ جديد تتنفس فيه بعمق وحيويةوالاول يعتمد على أن نصفي دراسة البلاغة مما فيها من الخلط والاضطراب ،وأن نبقي ما نستصفيه من دراستها على ما هو عليه الآن بنفس التقسيمات والمنهج ، أما الثاني فيعتمد على أن نواجه ابحاث البلاغة العامة مواجهة صريحة وجريئة ، لكي نوجهها الوجهة التي تتفق مع مناهج الدراسات الادبية واللغوية الحديثة .

وأنا أختار الطريق الثاني ، لان الاول لن يحل المشكلة حلا نهائيا ، حيث ستبقى الروح العلمية المتخلفة ـ حتى مع هذا الاستصفاء ـموجودة في المادة العلمية نفسها ، وتبقى جذورها ـ شئنا او لم نشأ ـ ضاربة في أعماق الدراسة القديمة بما فيها من تعقيد وآلية .

والمعلوم أن الابحاث العامة في علم البيان تتلخص في : التشبيه والاستعارة والكناية ، والحقيقة والمجاز ـ اما ابحاث علم المعاني عن : المسند اليه والمسند ، والقصد والخبر والانشاء وأنواعهما والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ـ ويتبعهما علم البديع .

وسأتناول هذه الابحاث في مستويات ثلاثة :

١ ـ التشبيه والاستعارة والكناية ودراسة الصورة الادبية في النقد الحديث .

٢ ـ الحقيقة والمجاز وتطور الدلالة في الدراسات اللغوية الحديثة.

٣ ـ أبحاث علم المعاني ونظام الجملة وفن التركيب في الدراسات اللغوية الحديثة .

لنرى كيف يمكن لهذه الابحاث ان تؤدي دورها في وطنها الجديد فتستفيد وتفيد .

أولا : التشبيه والاستعارة والكناية ودراسة الصورة الادبية .

من غير المعقول أن استعرض هنا في هذا البحث الموجز فكرة المذاهب الادبية المختلفة عن الصورة الادبية من كلاسيكية ورومانتيكية وبرناسية ورمزية وسيريالية ونفسية وغيرها ـ فلذلك ابحاثه ومواضعه الاخرى ـ لكني اشير فقط الى بعض الخطوط العامة التي افدناها من هذا الجهد الادبي الفني فيما نحن بصدد زعمه من دراسة هذه المباحث البلاغية ضمن هذا الاطار .

من ذلك أن الصورة الادبية لا يلزم أن تكون ألفاظها أو عباراتها مجازية ـ كما هو رأي علماء البلاغة ـ بل تكون الالفاظ والعبارات احيانا حقيقية وتصور المشهد أو الموقف النفسي تصويرا فنيا صادقا يدل على خيال خصب ، من ذلك مثلا قول القرآن (ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون) فجميع الالفاظ في هذه الآية حقيقية الاستعمال ، ولكنها مع ذلك تصور مشهدا حزينا من مشاهد القيامة ، وهو الموقف الذليل للمجرمين (ناكسو رؤوسهم) يزيده ذلة أنهم (عند ربهم) بل ان حديثهم كذلك ذليل يعبر أمنياتهم المحرومة البعيدة المنال (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) وأني يكون الرجوع بعد فوات الاوان !!

ومن ذلك أيضا قول « أبي صخر الهذلي » في حبيبته :

ويمنعني من بعض انكار ظلمها ... اذا ظلمت يوما وان كان لي عذر
مخافة أني قد علمت لئن بدا ... لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وأني لا ادري اذا النفس أشرفت ... على هجرها ما يبلغن بي الهجر

فليس في هذه الابيات الثلاثة كلمة مجازية باسلوب البلاغة ، ولكنها مع ذلك تصور بصدق أزمة « أبي صخر » النفسية ، اذ تظلمه حبيبته أحيانا ، فيغلب على أمره ، ولا يستطيع حتى « بعض الانكار » مع أن الحق في جانبه لو انكر « وله عذر » ولكنه لا يستطيع !! ويقدم لنا مبررات ضعفه في خوفه من هجرها حقيقة « وماله على هجرها صبر » بل رهبته من نفسه هو اذا قاربت الهجر وأشرفت عليه ، وما يسببه له ذلك من آلام ومتاعب ، فما بالك بالهجر نفسه « ما يبلغن بي الهجر » وهو بذلك يثير فينا الاشفاق عليه واعذاره في ضعفه بدلا من الحنق عليه والاسف من جبنه !!

وبهذا الخط العام نرى أن دراسة الصورة الادبية في النقد الحديث تتسع لدراسة اشمل بكثير مما قصرته الدراسات البلاغية القديمة على التشبيه والاستعارة والكناية . وهي فكرة لا تزال شائعة لدى كثير من العاكفين على دراسات السلف وحدهم .

من هذه المبادىء أن تكون الصور في العمل الادبي مرتبطة بالتجربة ـ على معنى أن تجسد الصورة فكرة أو عاطفة مما يثير التجربة المتناولة نفسها من أفكار أو عواطف ، والا كانت افتعالا مزيفا يدل على براعة العقل وقوة التخيل ، ولكنها في نفس الوقت تفتقد الصدق ولا تفيد شيئا اذ تدل فقط على « فهلوة » العقل والخيال ان صح هذا التعبير « فالصورة جزء من التجربة ، ويجب أن تتآزر مع الاجزاء الاخرى في نقل التجربة نقلا صادقا فنيا وواقعيا وهذا قدر مشترك بين المذاهب الادبية الحديثة » (١١) .

وفي ضوء ذلك يمكن أن نقدر قيمة كثير من التشبيهات والاستعارات التي اعتد بها البلاغيون فراحوا يحللونها معجبين ، مع أنها عارية تماما عن الصدق والفن . من مثل :

فان تفق الانام وأنت منهم ... فان المسك بعض دم الغزال

وقول الفرزدق يرثي ابنيه :

بقي الشامتين الترب أنكان مسنى ... رزية شبلي مخدر في الضراغم
وما أحد كان المنايا وراءه ... ولو عاش أياما طوالا بسالم
يذكرني ابني السما كان موهنا ... اذا ارتفعا فوق النجوم العواتم

ففي البيت الاول احتجاج عقلي لتفوق الممدوح على الناس (بأن المسك بعض دم الغزال) وهو احتجاج مزيف ، وتجربة الفرزدق هي « فقد ابنيه » وما يثيره ذلك من اشجان وأحزان ، ولكنه راح يتحدث عن الاشبال والاسود والسماكين والنجوم ، وهي صور منشؤها قوة التخيل ولكنها كاذبة ضعيفة التأثير لانفصامها عن تجربته .

ومن رأي النقد الحديث أيضا أن الصور الادبية في النص ينبغي أن تكون تجسيدا قوي الصلة بالمشاعر التي تسيطر على النص كله ،وان يكون التيار الذي يرفدها من داخل العمل الادبي نفسه ، فتصبح بذلك دلالة على قوة هذا الشعور وعمقه ، فهي فورة من فوراته الفنيةتجسدت في صورة حسية قوية ، وكلما كانت الصورة أكثر ارتباطا بالشعوركانت أقوى صدقا ، وأعلى فنا وكلما بعدت عن ذلك انقطع التيار الذي يمدها بالحيوية والحياة .

وفي ضوء هذا المبدأ يتبين أن كثيرا من التشبيهات والاستعارات التي تدل فقط على البراعة الحسية دون أن يكون وراءها شعور يغذيها ـ وهو الشعور الذي يسيطر على النص كله ـ لا قيمة لها في الميزان النقدي الحديث ، ومن ذلك مما درسناه في البلاغة :

النشر مسك والوجوه دنانير ، واطراف الاكف عنم

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا ، وعضت على العناب بالبرد

وكم جهدنا في معرفة هذه الوجوه البيانية وابعادها ؟؟ ومثلها ركام هائل في الشعر العربي نفسه وفي دراسات البلاغة القديمة .

ويتبين كذلك في ضوء هذا المبدأ أن مجرد الصنعة البلاغية في بيان أطراف التشبيه ووجه الشبه « الجامع في كل » واجراء الاستعارات

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

(١١) النقد الادبي الحديث ص ٤٤٩

البلاغة العربية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢١ ـ

بمظاهرها المختلفة وبوسائلها المجهدة عمل لا قيمة له لان اساسه بتر الصورة الادبية عن تيارها الشعوري والنفسي ، وبعثرتها جثثا ميتة لا حياة فيها .

واليك هذا النص النثري الموجز الذي أورده المبرد في كتابه «الكامل في اللغة والادب » لنوازن في صورة بين منهج البلاغيين ومنهج النقد الحديث .

قال ابو العباس : ومما يؤثر من حكيم الاخبار وبارع الآداب ما حدثنا به عبد الرحمن ابن عوف انه قال : دخلت يوما على ابي بكر الصديق رضي الله عنه في علته التي مات فيها ، فقلت له : أراك بارئا يا خليفة رسول الله (ص) .

فقال : أما اني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين اشد علي من وجعي ، اني وليت اموركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الامر دونه ، والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير ولتألمن النوم على الصوف الاذربي كما يألم احدكم النوم على حسك السعدان ، والذي نفسي بيده لان يقدم احدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من ان يخوض غمرات الدنيا ، يا هادي الطريق جرت ، انما هو والله الفجر أو البجر .

فقلت : خفض عليك يا خليفة رسول الله (ص) فان هذا يهيضك الى ما بك ، فوالله ما زالت صالحا مصلحا ... لا تأس على شيء فاتك من أمر الدنيا ... ولقد تخليت بالامر وحدك فما رأيت الاخيرا .

فهذا النص من نوع المحادثة الادبية بين صحابيين جليلين هما ابو بكر وابن عوف ـ وموضوعه مرض ابي بكر ووصايته بالخلافة لعمر ، وما أثاره ذلك من حفيظة المهاجرين .

فقد دخل « ابن عوف » على « الصديق » وهو يحمل مشاعر المواسي ، أما ابو بكر فمتألم حانق مما هو فيه من مرض بدني وشعور نفسي ممض ، وقد عبر كل منهما عن مشاعره بصدق ، فعبد الرحمن يواسي الصديق عن آلامه البدنية اولا بما يجمل بالمقام من الحديث عن الصحة والعافية (أراك بارئا يا خليفة رسول الله) ، ويرد ابو بكر بعبارة قصيرة عن المه الجسمي (اني على ذلك لشديد الوجع) ثم يلتفت بسرعة الى المه النفسي فيطيل الحديث عنه دلالة على شدة سيطرته على نفسه ، وعظم اهميته بالنسبة له ، مبينا ان الذي اثار حفيظة المهاجرين واعتراضهم عليه انما هو حب الدنيا ... وارادة الفتنة ـ واخيرا يأتي دور ابن عوف فيواسيه مرة ثانية عن المه النفسي بعد ما واساه عن مرضه البدني ، فيقول له : هون عليك الامر (فان هذا يهيضك الى ما بك) فيهدئه بعض الشيء ، ثم يهدئه تماما بعد ذلك بوصفه (بالصلاح والاصلاح) وأنه لم يخطيء في اختياره (فما رأى الا خيرا) ولقد اختار فأحسن الاختيار .

ففي هذا النص يتسلسل الشعور تسلسلا طبيعيا لا تكلف فيه ولا افتعال ، وهو من ناحية ادائه اللفظي ترتبط فيه الكلمات والعبارات في مدلولاتها وايحاءاتها بتلك المشاعر ارتباطا ناميا دون حشو او توقف ثم تنساب تلك العبارات في سهولة ورفق دون طنطنة او ضجيج ـ وذلك مناسب تماما لموقف المحادثة الجادة بين الاصدقاء ـ وفي خلال ذلك تتناثر فيه بعض الصور البيانية التي هي موضع حديثنا هنا وهي (كلكم ورم أنفه ـ يخوض غمرات الدنيا ـ أن يقدم احدكم فتضرب عنقه خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، يا هادي الطريق جرت ، انما هو والله الفجر أو البجر) .

فماذا يفعل البلاغيون لو افترضنا تناولهم لهذا النص وتلك الصور؟؟

ـ انهم يعزلونها اولا عن الموقف والمشاعر التي تؤديها النص ، ثم يتحدثون عنها بعد ذلك هكذا :

* كلكم ورم أنفه : كناية عن الغضب ، وهي من النوع الذي يذكر فيه اللازم ويراد الملزوم .

* يخوض غمرات الدنيا : يدخل فن الفتن وفي الفعل استعارة تبعية وفي الغمرات استعارة اصلية (يجرونهما) .

* عبارة لان يقدم الخ : فيها تشبيه ضمني مركب ، يحددون هيئاته وأجزاءه .

اما النقد الحديث فيعتبر تلك الصور في اماكنها التفانات جانبية ذات صلة طبيعية بمجرى الشعور الساري في كيان النص كله ، ففي عبارة (كلكم ورم انفه) نحس أن أبا بكر قد اشعرنا بالتشويه النفسي الذي دفعهم للغضب والاتهام بتلك الصورة التي يتضح فيها التشويه البدني ـ صورة أنوفهم التي تضخمت حتى اساءت الى وجوههم ـ فاذا انتقلنا الى من (يخوض الغمرات) وما تبعه من (يا هاوي الطريق جرت ، انما هو والله الفجر أو البحر) نحس حقا رهبة الدخول في الفتن بما تجسد أمامنا من صور الظلمات والخائضين فيها ... والمندفع في السير ليلا وقد ضل الطريق مع ما يترقبه من شر وهلاك ، وكل ذلك يجسد حقيقة المأساة التي يخشاها ابو بكر ، ويحذر منها ، وهي الدخول في الفتنة .

أجل .. فالتصوير ان ارتبط بمضمون النص بتلك الايحاءات المجسدة مما لا تؤديها العبارات في مستواها العرفي الحقيقي ، فهو صادق فنيا ، والا كان افتعالا لا قيمة له ، وحشوا لا فائدة فيه وهكذا تجب دراسته .

وأخيرا ... فليس من الممكن ـ في هذا البحث الموجز ـ أن استمر في عرض ما افدناه من هذا التراث الانساني في دراسة الصورة الادبية ـ فهو كثير ـ مع الموازنة بين ذلك وبين تركتنا البلاغية القديمة ولكني اكتفي بما قدمته معتقدا ان من الانصاف والوفاء لبحوث التشبيه والاستعارة والكناية في البلاغة العربية ان تصفي نفسها ، ثم تنضم بعد ذلك الى دراسة الصورة الادبية في النقد الحديث لتستفيد وتفيد .

ثانيا : الحقيقة والمجاز وتطور الدلالة في الدراسات اللغوية .

تبين ـ في الفقرة السابقة مباشرة ـ قيمة المجاز البلاغي في مستواه الفني ، وكيف يمكن لدراسته ان تكون مجدية في مستواها الجمالي باعتبارها جزءا من دراسة الصورة الادبية في النقد الحديث ، وهنا نتناول مبحث الحقيقة والمجاز ـ وهو أحد مباحث البلاغة الهامة ـ في مستوى اخر موضوعي هو المستوى الدلالي ، اذ ان الحقيقة والمجاز ليستا سوى مظهر « للتطور الدلالي » لا في اللغة العربية وحدها ، بل في كثير من لغات العالم ، ولذلك فان بحثهما الان يندرج تحت فرع من فروع الدراسات اللغوية الحديثة وهو « علم المعنى او الدلالة Semantics وبتحديد ادق في البحث عن « تطور الدلالة » .

لقد قسم علماء البلاغة الاقدمون الالفاظ الى حقيقة ومجاز مفترضين ان هناك واضعا اول قد وضع الالفاظ لمعان معينة ، فاذا استعملت هذه الالفاظ في معان اخرى غير ما وضع اولا خرجت عن حقيقتها الى المجاز ، كما جاء في شروح التلخيص : ان الحقيقة هي الدلالة الاصلية للفظ من الالفاظ في معان اخرى غير ما وضع اولا خرجت عن حقيقتها الى المجاز ، به غير المعنى الاصلي الموضوع له في أصل اللغة ـ وينقل السيوطي عما لقبه « بالامام وأتباعه » قوله : « المجاز خلاف الاصل : لانه يتوقف على الوضع الاول والمناسبة والنقل ، وهي أمور ثلاثة ، والحقيقة على الوضع وهو احد الثلاثة ، فكان اكثر » (١٢) .

وعلى الرغم من ذلك فان علماءنا الاقدمين ـ ومنهم البلاغيون ـ قد اختلفوا تماما في تقسيم ألفاظ اللغة بين الحقيقة والمجاز والانحياز الحاسم الى احد الجانبين أو الاخذ بكليهما ، بل قد اختلفوا ايضا في دلائل الفرق بينهما في حديث طويل ليس هنا مجال ذكره .

والسبب في هذا الاختلاف والاضطراب يعود الى ان فهم الحقيقة والمجاز لديهم قد قام على اسس هي :

(١٢) المزهر في علوم اللغة جـ ١ ص ٣٦١

١ ـ افتراض الواضع الاول للغة ، أو بعبارة اخرى افتراض التوقيف في نشأتها ، سواء أكان ذلك المنشىء هو الله او الانساء . كما هو واضح في تحديد المعنى السابق لكل من الحقيقة والمجاز .

٢ ـ اعتبار اللغة عصرا واحدا في تحديد دلالة الالفاظ والاستشهاد بها .

٣ ـ اغفال العنصر الاجتماعي في تحديد مدلولات الالفاظ ، للتفريق بين الحقيقة والمجاز .

وببيان هذه الامور الثلاثة ـ لا غير ـ من وجهة النظر اللغوية الحديثة تتضح الاخطاء المنهجية في دراسة الحقيقة والمجاز لدى البلاغيين خاصة والاقدمين عامة ، كما يتضح أيضا ما نزعمه من وجوب دراستهما في علم اللغة لا في البلاغة .

ان القول بالواضع الاول للغة يرتبط بالبحث في نشأة اللغة التي وجدت من الباحثين القدماء ـ العرب والاجانب ـ عناية كبيرة ، فتشعبت الآراء ، وكثرت وجهات النظر ، ولكن منذ القرن الثامن عشر لم يعد لهذا البحث قيمة علمية لدى اللغويين المحدثين ، اذ كتب Herdar في هذا القرن يقول في كتابه : « معجزة نشأة اللغة » لقد اخترعت اللغة بوسائل الانسان الخاصة ، ولم تبتكر بصورة آلية بطريق التعليمات الالهية ، لم يكن الله هو الذي اخترع اللغة للانسان ، ولكن الانسان نفسه هو الذي اضطر الى اختراعها بطريق ممارسة قدراته الخاصة .

وأضيف الى ذلك ان اللغة لم تبتكر بطريق التوقيت أيا كان ، فليس هناك واضع أول ـ الهي أو بشري ـ يتوقف عليه وضع الالفاظ او دلالتها ، بل ان البحث في نشأة اللغة ـ عموما ـ لا يؤذن له الآن بالدخول في المنهج الحديث اذ هو بحث غيبي لا يدخل في امكان الباحث وبتقرير هذه الحقيقة يتبين قيمة الاساس الاول الذي يفترضه علماء البلاغة في دراستهم للفكرة ، فافتراض الواضع الاول لدلالة الالفاظ ـ وعلى اساسها تكون الحقيقة وبتغيرها يحدث المجاز ـ افتراض قد جانبه التوفيق .

أما اعتبار اللغة عصرا واحدا في تحديد دلالة الالفاظ وفي الاستشهاد بها مع أنها تمتد آمادا بعيدة في الجاهلية وفيما تلاها من قرون ـ هذا المدى الزمني الطويل لم يدرس بهذا الوصف بل درس على أنه مدى واحد ، ومرحلة واحدة ، فاذا اخذنا في الاعتبار مع ذلك ان اللغة ظاهرة اجتماعية تتطور باستمرار ، وان لكل مرحلة منها خصائص مستقلة في الدلالة وفي غيرها ، قد تكون جديدة تماما او متجددة عما سبقها لتبين لنا السبب في اضطراب منهج الاقدمين ، واعتبارهم الالفاظ كلها حقيقة او كلها مجازا ، اذ قد يكون للفظ تاريخ مجازي ينسى مع هذا المدى الطويل ـ ومن هنا جاء القول بأن كل الالفاظ حقيقة ـ كما يحدث العكس أيضا ، اذ قد يكون للفظ تاريخ مجازي يذكره بعض العلماء ـ ومن هنا ما قيل من أن كل الالفاظ مجازية ـ .

والخلاصة أن هذا الاساس الثاني أيضا مما أخذ في اعتبار البلاغيين ـ وغيرهم من علماء اللغة ـ اساس قد جانبه ايضا التوفيق .

أما الفكرة الثالثة ـ وهي العنصر الاجتماعي في دراسة الحقيقة والمجاز ـ فقد أغفله البلاغيون العرب ، مع أنه هو أساس الفهم المتطور الحديث لفهم الدلالة ، بل ولدراسة اللغة كلها ، ذلك ان فهم الحقيقة والمجاز يرتبط بالفرد الذي يسمع الالفاظ أو يقرؤها ، فهو وحده الحكم في نوع دلالة اللفظ ، ويعتمد حكمه على تجاربه مع الالفاظ وعلى الوسط الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه « لان الحقيقة لا تعدو ان تكون استعمالا شائعا مألوفا للفظ من الالفاظ ، وليس المجاز الا انحرافا عن ذلك المألوف الشائع ، وشرطه أن يثير في ذهن القارىء او السامع دهشة أو غرابة أو طرافة» (١٣) وبالرغم من أن ذلك مرتبط بالفرد ، فان الامر لا يتوقف عليه فقط ، بل نجد قدرا من الاشتراك في هذا الاثر النفسي الذي يحدد مستوى الدلالة للالفاظ ، وعلى أساس هذا الاشتراك يكون الحكم العام بحقيقة الالفاظ أو مجازيتها « فاذا ما تبلورت الكلمة ، وتحدد معناها الجديد في البيئة الخاصة كان لا بد لها في الوقت المناسب ان توسع دائرتها الاجتماعية الخاصة ، حتى تصبح مقررة ثابتة في الاستعمال العام » (١٤) فالدلالة تعتمد على الفرد اولا مرتبطا بوسطه الاجتماعي والثقافي ثم على المجتمع كله بعد ذلك الذي تتحرك الالفاظ فيه ، فهو وحده الحكم في شيوع هذه الدلالة واعطاء الالفاظ دلالتها الجديدة .

ويكمل هذه الفكرة بملاحظة فكرة ثالثة وهي التطور المستمر لكل مظاهر المجتمع ـ ومنها اللغة ـ وبناء على ذلك تتغير الدلالة الشائعة في جيل معين وبيئة خاصة الى دلالة اخرى اذا توفرت لها الظروف الفردية والاجتماعية السابقة « فالمجاز القديم مصيره الى الحقيقة ، والحقيقة القديمة قد يكون مصيرها الى الزوال والاندثار ، وتبقى اذا قدر لها البقاء تنتقل من مجال الى آخر جيلا بعد جيل ، وذلك هو التطور الدلالي» (١٥) .

هذا هو فهم اللغوي الحديث لفكرة الحقيقة والمجاز ، وهو فهم يعتمد على طبيعة اللغة الاجتماعية ، وهو أيضا فهم متسامح لا تحكم فيه يقف به الدارس وراء اللغة في عصورها المختلفة لدراستها وفهمها ، ولا يفرض عليها حسما لا تحتمله طبيعتها المتطورة بالاستعمال ، المتغيرة على مدى العصور .

ولا يمكن هنا ـ في هذا البحث الصغير ـ التعرض لكل دراسات اللغويين المحدثين عن « تطور الدلالة » من عوامل تطورها ومظاهرها ، وكيفية تعدد المعنى ، والموازنة بين ذلك وبين دراسات الاقدمين من علماء اللغة والبلاغة ، ولكن حسبي فيما قدمت أنه اشارة الى الموضع الصحيح الذي ينبغي ان تدرس فيه فكرة الحقيقة والمجاز في مستواها الدلالي ، لتكون دراستها مجدية ومتطورة ، وهو « علم الدلالة في الدراسات اللغوية الحديثة » .

ثالثا : علم المعاني ونظام التراكيب في الدراسات اللغوية .

لعل أول تساؤل يرد على الذهن هنا هو : لماذا سمي هذا العلم البلاغي باسم « المعاني » ؟ وما مدى انطباق بحوثه المختلفة على هذا الاسم؟ ـ وبتصفح مصادر هذا العلم القديمة وتوابعها وتأمل التعريفات التي أوردوها له نجد أن المعاني التي يهتم بها البلاغيون هي الظروف والملابسات التي تحيط بالمتكلم والسامع ، حيث تستدعي هذه الظروف طريقة خاصة في تأليف الجملة ونظام التركيب اللغوي ، وعلى سبيل المثل يذكر المسند اليه لمعان معينة ، كما يحذف لدواع اخرى ، ويعرف لظروف خاصة ، وينكر لاخرى وهكذا .

والحقيقة ان مادة الدراسة في هذا العلم ليست هي هذه المعاني فقط ، بل ان مادته تشمل كذلك ـ ربما بدرجة اهم ـ كيفيات التراكيب وطريقة نظمها ، أو بعبارة أوضح : الصور المختلفة التي ترد عليها من توكيد ونفي واستفهام وقصر وفصل ووصل وغير ذلك ، فبحوثه اذن موزعة بين هذين الامرين ، كما جاء في شروح التلخيص « أنه علم يعرف به المعاني التي يصاغ لها الكلام وهي المدلولات العقلية المسماة بخواص التركيب » (١٦) او كما يقول ابن مالك « هو تتبع خواص تراكيب الكلام وقيود دلالته ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام » (١٧) .

وسأقدم هنا ـ باختصار ـ الرأي في كلا الامرين السابقين اللذين يقوم عليهما هذا العلم ليتضح في ضوء هذا الرأي .

١ ـ قيمة معاني البلاغيين التي جهدوا فيها في خدمة النصوص الادبية وتفسيرها .

٢ ـ تطور علم التراكيب أو تنظيم الكلام Syntax في الدراسات اللغوية الحديثة بما يشمل ـ فيما نزعمه ـ معظم ابحاث المعاني البلاغية

(١٣) دلالة الالفاظ ص ١٢٥

(١٤) دور الكلمة في اللغة ص ١١٧

(١٥) دلالة الالفاظ ص ١٢٧ .

(١٦) شروح التلخيص ج ١ ص ١٥١ .

(١٧) المصباح ص : ٣

في تأليف الكلام .

ان الدراسة الادبية تبحث عن عناصر الجمال الموجودة في النص نفسه ، سواء في جنسه الادبي أو تجربته أو ما يثار حول التجربة من مشاعر ومعاني أو البناء الفني وما فيه من امكانيات للنمو بالعمل الادبي او تجمده ، والبحث في ذلك يكون باستشفاف روح النص نفسه ، ومعايشته وجدانيا ، اما دراسة الظروف العامة والخاصة التي تحيط به ، فانما تعتبر فقط عوامل مساعدة على الفهم والتفسير ، او بعبارة أخرى : أنها من العوامل ذات الصلة .

لكن علم المعاني البلاغي دار كله حول هذه الظروف والملابسات والغريب حقا انها لم تكن ظروفا فنية أو وجدانية ، حتى تقدم للادب شيئا مفيدا ، بل وصفت في شروح التلخيص « بأنها مدلولات عقلية» ووصفها ابن مالى « بأنها قيود للدلالات » فهي خاضعة اذن لجفاف العقل وسطوته ، لا لشفافية الوجدان وجماله ، وهي قيود للدلالات تمنعها من التفتح ... والايحاء والرفافة ، يقول الاستاذ ماسينيون في بحثه بمجلة المجمع : فعلم المعاني الحق ليس المقصود به جلب القلوب بلطائف التعبير بل قبول العقول والاذهان للافكار الصحيحة . وتصديقها بعد تصورها .ـ والبحث في الافكار الصحيحة وتصديقها بعد تصورها من خلال الجمل انما هو من عمل المنطق في عنايته بالقضية المنطقية وتصورها وقد كان له ـ كما سبق بيان ذلك ـ تأثير كبير في البلاغيين ودراساتهم .

والانسان يأخذه العجب حتى الدهشة حين يجد هذه المعاني البلاغية من السذاجة والتكرار وضعف الاستقراء للنصوص الصحيحة الى الحد الذي تصطنع فيه كل من المعاني والشواهد اصطناعيا فالمسند اليه يتقدم لاسباب معينة ، كالتمكين في ذهن السامع والتعجيل بالمسرة او المساءة والتعظيم والتحقير والتبرك وغير ذلك ، وتتكرر نفس هذه الاسباب في تقديم المسند ، بل في غيره من المواضع ، اما ضعف الاستقراء فيتضح في افتراض تراكيب لم تحدث في القرآن والنصوص الصحيحة ، كمافي بحث (تقدم الحال من المتعلقات) وبناء معان على هذه التراكيب المفترضة ، واختلاق أمثلة وشواهد لذلك ، وكذلك في مبحث (الفصل والوصل) وغير ذلك .

والخلاصة أن هذه المعاني ـ بما هي عليه لدى البلاغيين ـ مدلولات عقلية فيها من السذاجة والتكرار وضعف الإستقراء ما يعزلها عن كل من دراسة اللغة والادب على سواء .

أما عن الفكرة الثانية فان علم التراكيب Syntax من اهم فروع الدراسات اللغوية الحديثة ، بل هو غاية الفروع الاخرى التي تسبقه في تحليل النص اللغوي على مستوى الاصوات Phonetics والحروف Morphology والصرف Phonemes ويقابله في دراساتنا التقليدية الآن علم النحو .

وهذا الفرع من فروع الدراسات اللغوية مهمته البحث في خواص التركيب وكلماته من كيفية تأليفها ومواقعها وموقف كل منها من الاخرى من حيث الموقع ، وعلاقته كل منها بالاخرى من حيث الوظيفة ، فيرى اولمان Ullmann ان دراسة وظائف الوحدات اللغوية يختص بكل منها علم من العلوم والذي يختص بدراسة وظائف التراكيب هو علم النحو ، وهذه الوظائف تشمل دراسة التركيب من حيث تأليفه، وعلاقة الكلمات بعضها بالبعض الاخر .

واذا نحينا جانبا الفهم الشائع عن نحونا العربي من أنه لدراسة الاعراب وأواخر الكلمات فقط فان هذا الفهم اللغوي الحديث يتفق الى حد كبير مع واقع ما في كتب النحو ، ومع الفهم الذي فهمه به كثير من علمائنا الاقدمين .

فمثلا اذا تصفحنا بابا مثل باب المبتدأ والخبر نجد ابحاثه الرئيسية تدور حول التطابق بين المبتدأ والخبر من حيث الجنس والعدد ، وموضع كل منهما من حيث التقديم والتأخير ، ووجودهما في الكلام أو غياب احدهما ، وتعدد الاخبار ـ فمعظم هذه الابحاث انما هي في التركيب اللغوي واسراره وتكوينه . وقد فهم كثير من أئمة النحاة القدماء مهمة النحو العربي بهذا المعنى ، وعبد القاهر الجرجاني اشهر من ان يذكر بذلك ، وقبله أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه « مجاز القرآن » ويقول أبو سعيد السيرافي : معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وغيرهما ـ فالنحو في رأيه يبحث في الحركات والسكنات والحروف وكيفية تأليف الكلام ، فمهمته لا تقتصر فقط على ضبط اواخر الكلمات . (١٨)

بهذا الفهم الموجز المركز لعلم التراكيب في الدراسات اللغوية ، ومدى اتفاقه مع ما لدينا من تراثنا العظيم ، نعلي لا اتجاوز الحقيقة اذ اشير بضم دراسات علم المعاني فيما يختص بنظام الجمل والتراكيب الى الدراسات اللغوية ، وهي دراسة متطورة نامية يمكن ان تفيد منها ابحاث البلاغيين .

وبعد :

فاذا كان هذا البحث جريئا ، فهي جرأة يسندها الحق فيما أعتقد وهو ـ كما قلت في بدايته ـ رأي يستند الى دراسة علمية متطورة في اللغة والادب ، وربما قد جانبني فيه التوفيق ... ولكني مجتهد !!

القاهرة — محمد عيد

المراجع حسب ورودها في البحث

١ ـ قضايا الشعر المعاصر — نازك الملائكة
٢ ـ مقدمة ابن خلدون
٣ ـ شروح التلخيص
٤ ـ المصباح — ابن مالك
٥ ـ الاسلوب — احمد الشايب
٦ ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان — دكتور ابراهيم سلامة
٧ ـ النقد الادبي الحديث — دكتور محمد غنيمي هلال
٨ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها — السيوطي
٩ ـ دلالة الالفاظ — دكتور ابراهيم أنيس
١٠ ـ دور الكلمة في اللغة — (أولمان) دكتور كمال بشر
١١ ـ الامتاع والمؤنسة — أبو حيان التوحيدي

(١٨) راجع : الامتاع والمؤنسة جـ ١ ص ١٢١ .

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

١ ـ الادب الملتزم	٥٠٠	ق.ل
٢ ـ ادباء معاصرون	٤٠٠	ق.ل
٣ ـ جمهورية الصمت	٤٠٠	ق.ل
٤ ـ قضايا الماركسية	٤٠٠	ق.ل
٥ ـ المادية والثورة	٤٠٠	ق.ل
٦ ـ جمهورية الصمت	٣٥٠	ق.ل

منشورات دار الاداب